



دُفَاعٌ عَنْ ظَاهِرَةِ الْمُتُونِ وَمَابِئِىْ عَلَيْهَا دكتور عبد الكريم محمد الأسعد

المتون والشروح: طيحتها والغرض منها:

المتن مصطلح جرى إطلاقه عند أهل العلم على مبادئ فن من الفنون تكلف في رسائل قصيرة غالباً، وهي تُلخِّص في العادة من كل ما يؤدي إلى الاستطراد أو التفصيل كالشواهد والأمثلة إلا في حدود الضرورة وذلك لتضييق المقام عن استيعاب هذا ونحوه، لذلك عدت المتون الأقل ألقاها الأحسن في ذاتها والأكثر قبولاً عند الدارسين.

ولقد نشأت ظاهرة المتون المنشورة والمنظومة على حد سواء لتسهيل التعليم وتيسير الحفظ

والاستدراك والاستيعاب، والمعاونة على حفظ أصول العلوم وقواعدها، وتبعاً لهذه الأهداف كان لابد أن تتميز طبعات المتن بالاختصار والافتصار على الأسس، وبالاكتفاء بالإنجاز والتلخيص بدلاً من الإسهاب والتصرّح. وقد اقتضى وجود المتن بالضرورة شرحاً وموضحاً، فوضع لها العلماء المصنفات الشارحة الموضحة، وتوجهاً فيها التدرّج والتبويب، فتراوحت لذلك بين الطول والقصر، وتفاوتت بين السهولة والعسر، وأصبح فيها التوجيه والوسيط واليسيط، وكل ذلك كان يشرح للدارسين ما غمض من المتن، ويفصل للطلاب ما أهمل فيها.

الخواشي والتفريعات واختصرات: طبيعتها والغرض منها:

دعت الضرورة بعد تأليف المتن والشروح إلى الخواشي المضافة لأيضاح شروح المتن وحل مستغلقها وتبسيطها، فأخذ العلماء يصنفون هذه الخواشي ويستذكرون فيها ويندون ويضيفون الأمثلة والشواهد والأدباء والمجرباء، وأكثروا مع الأيام من هذا التصنيف مما أدى إلى كثرة هذه الخواشي وتنوعها وتفاوت ما فيها وتجزئتها عن غيرها مما يتضمنه كل منها من الاجتهادات المختلفة تبعاً لاختلاف فهم أصحابها لعبارة المتن والشرح الخفية المعنى، ومن ثم اجتهد كل منهم في تحديد المراد بطريقة تختلف عن طريقة غيره في هذا السبيل.

أما التفريعات فهي بمثابة هوامش كان يسجلها المعلمون والمصنفون على أطراف نسخهم مما يعرهم من الخواطر والأفكار والملاحظات على نقطة معينة أو نقاط متعددة من هنا وهناك في أثناء قيامهم بالتدريس من الشروح والخواشي أو بالتصنيف عليها، يستذكرون من خلالها على ما يعتبرونه نقصاً أو خطأ أو غموضاً فيها، ومع الأيام طبعت هذه التفريعات في مكائبات من الهوامش إلى جانب الشروح والخواشي، وأصبحت لأكثرها أهمية بالغة وقيمة كبيرة، وهي في إطارها الخاص وظاهريها الموجز ومحتواها المكثف أشبه بالثمن وإن اختلفت عنها بأنها تنف منفردة في معارف متنوعة ليس فيها مائل المتن من الرابطة العلمية العام، والجامع الموضوعي المشترك، ولا يربطها ما يربط المتن من انساق وتساق، ولا ينظمها ما ينظم المتن من تسلسل في الموضوعات ووحدته في البحث، بل هي شذرات تكون على بعض ما هو هام في الشروح والخواشي ولا تكون على سائر محتوياتها.

وعندما استقر هذا النظام التأليفي القائم على المتن والشروح والخواشي والتفريعات، عمد بعض العلماء المصنفين في دورة معاكسة إلى اختصار الشروح والخواشي المضافة، وإلى الاختصار مما كان في المتن والتفريعات، ثم إلى العودة بالتحصيل من هذا كله إلى

ما يشبه المتن مرة أخرى، وذلك لما رأوه فيها من التردد الشديد، ومن الخروج الكثير عن الموضوعية، ومن الاستطراد إلى ملاحاجة ماسة له في مجال البحث.

المتن والشروح في عصور المماليك:

انتشرت ظاهرة المتن والشروح في العلوم المختلفة في عصور المماليك انتشارا عظيما، وأصبحت مطالعا شاملا للتدريس هذه العلوم، ومنها سائلا من مناهج التأليف فيها، وقد اتفق علماء هذه العصور إلى المتن فسيطروا فيها أصول العلوم بدقة وإحكام وجمعوها ولموا شعثها في صعيد واحد بعبارة موجزة جامعة دقيقة الإشارة يستطيع الدارس أن يستوعبها بأقصر طريق وفي أقل زمن، وغلا بعضهم في التجزئ المتن وضغط عبارها حتى بلغت حد الرموز، ثم وجدوا بعد ذلك أن المتن جميعها بحاجة إلى شروح توضحها فأدخلوا في تصنيف الشروح لما صنفوا المتن وأسرفوا في ذلك كله إسرافا أدى إلى أن توصف عصورهم من أجله بأنها عصور المتن والشروح.

وفي ظني أن الاكثار في عصور المماليك من المتن خاصة إنما كان لشدة حرص علماء هذه العصور على سرعة تلاقى ما ضاع من كتب العلم في كارتني المشرق في بغداد والمغرب في الأندلس، وذلك بجمع شذات العلوم في قبضة اليد في صورة المتن، وأن الاكثار من الشروح في هذه العصور إنما كان لأن هذه العصور جاءت بعد عصور سابقة عاش فيها أئمة محققون مجتهدون تركوا لرائنا متكاملًا، فوفر في نفوس العلماء أنه ليس لديهم زيادة لمستزيد، وأنه لم تعد لديهم طاقة أو عندهم متسع للاجتهاد فسدوا بابه وأنهبوا إلى الشروح يوضحون بها ما بين أيديهم من المتن، واكتفوا منها على النحو الذي رأيناه من الحشود المائلة بين أيدينا منها، يقول الدكتور محمد كامل حسين فيما يبدو كأنه أنسب ما يمكن أن يذكر في تحليل ظاهرة المتن والشروح التي سادت نظام التأليف في عصور المماليك فإن العلوم إذا تم تكوينها ووضعت قواعدها لمر على العلماء فترة بعد ذلك طويلة أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو نقدها، ويكتفون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة، بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالقديم، هذا ما كان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة، وهذا ما حدث أيضا للمسلمين في جميع الأنظار الإسلامية بعد أن وضعت قواعد اللغة ودون الأدب العربي بألوانه وقولته... فهذه الفترة فترة ركود ذهني العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباعدة عن القديم، مرت بها مصر الفاطمية، بل مرت بها جميع الأنظار الإسلامية، بل أستطيع أن أقول أننا لا نزال نعيش على هذه الأصول القديمة ولم نستطع أن نتحرر منها إلى الآن فقواعد اللغة التي دونها

سببوه، وأصول الصرف كما تركه ابن جني، وعروض الخليل بن أحمد... هي التي تبسط
على حياتنا العلمية العربية إلى الآن»^(١)

وهكذا وصل علماء عصور الممالك بالمتون والشروح بين قديم العلم وحديثه، وحالوا
دون انقطاع الصلة بين ما قبل عصورهم وما بعدها في جميع العلوم، ولولا ذلك ربما كان لهذه
العلوم نظام آخر غير هذا الذي ذكرناه، من هنا فإن هذه المتون والشروح تعد ظاهرة
متميزة صورت عصور الممالك، وعكست الحياة العلمية فيها، وحفظت أذنك الفائدة
المرجوة والنفع المتوخى منها.

الموسوعات في هذه العصور :

لم تكن عصور الممالك عصور متون وشروح فحسب، بل كانت أيضا عصور
موسوعات^(٢)، فقد ظهر في هذه العصور علماء من ذوى العقليات العلمية الموسوعية
التي تميل إلى التأليف الجامع وإلى وضع دوائر معارف واسعة تكون مصادر للعلوم
اقتلفة، وقد اجتمعت في هذه الموسوعات كل ألوان التراث الخالد الذي تركه العهد
العباسي في بغداد والدولة العربية في الأندلس في العلم والأدب، ومن الواضح أن مادفعهم
إلى العناية بالمتون والشروح هو نفسه مادفعهم إلى الاهتمام بالموسوعات، فقد رأوا أن
كثيرا من التراث قد ضاع بسقوط هاتين الدولتين وحملهم هذا على أن يتجهوا في آن واحد
إلى الاكثار من تصنيف المتون والشروح والموسوعات جميعا ليحفظوا الحضارة الإسلامية
عن طريق حفظهم لل ذخائر الدين واللغة في هذه المصنفات.

وقد التفت موسوعاتهم بالاستطراد إلى الكثير من المعارف الفرعية في غير العلم
الأصلي الذي ألف من أجله الكتاب، فأصبحت هذه الموسوعات بذلك أشبه ما تكون
بتوابع المعارف الواسعة المكيبة بالمعلومات المتنوعة المقلدة، مما أدى إلى خلودها وأشتهارها
واستمرار تداول الباحثين لها حتى الآن.

ومن هذه الموسوعات المهمة على سبيل المثال: نهاية الأرب للتهوري المتوفى سنة
٧٣٣هـ، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري المتوفى سنة
٧٤٩هـ، وصحاح الأعشى للفلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ، وغير ذلك كثير.

الجذور التاريخية للموسوعات :

لم تكن النزعة الموسوعية عند المصنفين في عصور الممالك ظاهرة جديدة تماماً، فالعصر المملوكي لم يكن مبتكراً كالإبتكار لفكرة الموسوعة، إذ الموسوعات العربية لها وجود فعل سابق لهذا العصر بمدة كبيرة، ولعل الجاحظ أول كاتب في الإسلام يمكن أن يكون خليفاً باسم الموسوعي، والحق أن كتب الجاحظ مجتمعة يمكن أن تكون موسوعة كبرى لم يسبق إليها، ثم يصح أن يكون رجال كابر قتيبة وأبي حيان التوحيدي وصاحب كتاب الأغاني موسوعيين بهذا المعنى، ثم لأمير بعدئذ من النظر أيضاً إلى رسائل إخوان الصفا على أنها موسوعة فلسفية (٣٢).

من هنا يمكن القول بأن النزعة الموسوعية بدأت بالظهور في العصر العباسي الذي مالت أن حفل بالكثير من الموسوعات المختلفة، ثم آل الأمر إلى اتساع هذه النزعة في عصور الممالك وأخذها طابعاً شاملاً في التصنيف لدى جبهة علماء تلك العصور الذين يمثلهم في هذا الباب خير تمثيل الجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ فقد كان صاحب عقلية موسوعية وإنتاج غزير تفيض بوضوح من خلال مآثره من آثار تكاد تربو على سقاية مؤلف ورسالة تتراوح بين الأسهاب والابتناء، حشد فيها الكثير من الروايات والأخبار والنصوص والأقوال وغير ذلك في فنون مختلفة، حتى بدت جميعاً وكأنها دائرة معارف واسعة مقصلة.

الحواشي والتقريرات والمختصرات في العصر العثماني:

انقصر التصنيف في العصر العثماني تقريباً على الحواشي والتقريرات والمختصرات، ولم يخل بالطبع من كثير من الشروح لكثير من المؤلفين، ولكنه تميز بكتابة حواشيه وتقريراته بالذات كثرة بالغة، وظهر فيه علماء أجادوا في تصنيف أكثر الحواشي على وجه الخصوص، وأحسنوا ترتيبه وتقريبه وأفادوا منه الدارسون أيما إفادة، وكان لهم فيه مواقف وآراء ومناقشات تطوى على ألوان من الإبداع والتجديد العلمي، ومن هؤلاء الشنقلاي المتوفى سنة ١٠١٩هـ والدنوشري المتوفى سنة ١٠٢٥هـ والحفني المتوفى سنة ١١٧٦هـ والصبان المتوفى سنة ١٢٠٦هـ وغيرهم.

ولكن إعجابنا بما كان من جبهة هذه الحواشي لا يمنع من الاعتراف بأن القليل منها لم يكن على المستوى المرغوب، وبأن صانع هذا القليل كانوا كذلك، وهذا ليس بغريب،

لأنه شأن التأليف والمؤلفين في كل زمان ومكان، يكون قيم الجيد وغيره، وتتفاوت مصنفاتهم في الجودة وضدتها، وعلى كل حال فإن هذا القليل على الرغم من ضخامة بعضه وسط القول فيه كان مشوها في أكثر من موطن بالقول الناقصة أو المضطربة أو التي يناقض بعضها بعضا، وهي نقول لم يستند ناقلوها أيضا لسبب أو لآخر إلى مصادرها الأصلية مباشرة بل اعتمدوا في ذلك على وسيط سابق أو أكثر من وسيط، واستغنوا بذلك عما يجب أن يكون من التحقيق العلمي الدقيق، وكان كذلك حالنا بالتقليد والتكبير والترديد بلا داع قوي، ومضطعنا للأحاجي والألفاظ دون مبرر، وملينا بالاعتراضات والردود عليها ثم الردود على الردود في غير ماضورة داعية، وهذا كله مع الانعان في تعقيد الألفاظ وإغماض التراكم وكثرة الحشو بمصطلحات الفنون المختلفة والألفاظ في التعلق بالاستطراد لأدلى ملائمة، ومع عدم ملاحظة مصطفى هذه الحواشي لمستوى الدارسين حتى أصبحنا نرى في بعض الحواشي التي وضعها أصحابها للمبتدئين من المسائل مالا يهضمه إلا من تروى من العلم بيسر وفير، وقد ترتب على هذا أن نفر بعض الطلبة الذين لم يتحلوا بالجلد والصبر من العلم حين صدموا في مطلع حياتهم العلمية بهذه الحواشي وأنظمت عليهم مسالكها وفاتهم تحقيق الغرض السليم منها.

على أن هذا كله لم يكن كما ذكرنا ألا وصفا للقليل من هذه الحواشي، أما جمهورها، وكذلك أكثر التقارير والمختصرات فقد كان جيدا جودة طيبة، وهو مازال وسيبقى جزءا كبيرا من تراثنا الخالد لا يستغنى عنه دارس متعمق مهما علا كعبه في العلوم والمعارف، وسنفضل القول عن هذه الجمهرة الطيبة في حديث لاحق من هذه المقالة ندير فيه الكلام على هذا النظام التأليفي برمته من خلال وضعه في الميزان.

من مصنفات هذا النظام التأليفي في عصور المماليك والعثمانيين:

كثرت كما سبق أن أوضحنا المنون المتنوعة والمنظومة والشرح، ثم الحواشي والتقارير، في عصور المماليك، ثم في عصور العثمانيين على التوالي، في مختلف العلوم، ومن المناسب بعدما تقدم أن نورد أسماء بعض هذه المصنفات وهي :

- شرح ابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢هـ لأرجوزته «الامية الأفعال».
- شرح ابنه بدر الدين المتوفى سنة ٦٨٦هـ لنفس الأرجوزة.
- شرح لعبد العزيز البحاري المتوفى سنة ٧٢٠هـ «كسر الوصول إلى معرفة الأصول» المعروف بأصول البردوي لعل من محمد بن الحسين البردوي المتوفى سنة ٨٢٢هـ، وقد

- سمي شرحه «شرح أصول البردوي» أو «كشف الأسرار» أو «كشف بردوي».
- شرح علاء الدين طبريس المتوفى سنة ٧٤٩هـ منظومه النحوية المسماة «الطرفه».
- شرح لصفى الدين الخلي المتوفى سنة ٧٥٠هـ على منظومه «الكافية البديعة في المدايح النحوية».
- شرح زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المصري المتوفى سنة ٨٨٦هـ لألفيته في علوم الحديث.
- شرح شعبان بن محمد المصري الأتازي المتوفى سنة ٨٢٨هـ لمنظومه النحوية «الحلاوة السكرية» وقد سمي شرحه «القلادة الجوهريّة في شرح الحلاوة السكرية».
- شرح لشمس الدين محمد اليرموكي المصري المتوفى سنة ٨٣١هـ على ألفيته في أصول الفقه المسماة «النيلة الألفية في الأصول الفقهية».
- شرح ليوهان الدين ابراهيم بن محمد القاسبي الخلي المتوفى في حدود سنة ٨٥٠هـ على ألفيته في المعاني والبيان.
- شرح برهان الدين البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ لأرجوزته «الباحة في علمي الحساب والمساحة».
- شرح الجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ لألفيته في النحو المسماة «الفريضة» وقد سمي شرحه «المطالع السعيدة في شرح الفريضة».
- شرح بحرق التتوي المتوفى سنة ٩٣٠هـ على لامية الأفعال لابن مالك، وقد سماه «فتح الأفعال وحل الإشكال بشرح لامية الأفعال».
- حاشية على شرح جمع الجوامع في أصول الفقه اسمها «آيات البيان» لأحمد بن قاسم الصياغ العبادي الذي يعر عنه أحياناً ب «سم» اختصاراً، المتوفى سنة ٩٩٢هـ أو سنة ٩٩٤هـ.
- شرح ابراهيم الكرمياني المعروف بشريف المتوفى سنة ١٠١٦هـ لأرجوزته النحوية المسماة «الفرائد الجميلة» وقد سمي هذا الشرح «الفوائد الجلية في شرح الفرائد الجميلة».
- «تلخيص الأساس في شرح البناء والأساس» لعل بن عثمان، وهو شرح لمتن «البناء والأساس» في علم الصرف لأحمد رشدي الفري أخا جلي.
- شرح محمد الكفوي بن الحاج حميد على متن «البناء والأساس» السابق، فرغ منه سنة ١٠٤٦هـ.
- شرح رسالة أبي زيد في مذهب المالكية لعل الأجهوري المالكي المتوفى سنة ١٠٦٦هـ.
- حاشية على تفسير الجلالين لعطية الأجهوري الشافعي المتوفى سنة ١١٩٠هـ.
- شرح محمد بن زكري من علماء القرن الثالث عشر الهجري لألفية جلال الدين

- السيوطي المسماة «العريدة» وقد سمي شرحه «المهعات المفيدة في شرح العريدة».
- شرح لأحمد العرندير على مته الذي سماه «تنفة الإخوان في علم البيان».
 - حاشية لأحمد محمد الصاوي على شرح العرندير السابق، وقد فرغ منها سنة ١٢١٩هـ.
 - تقريرات لعل بن حسين المشرقي البولافي على حاشية الصاوي السابقة.
 - حاشية ابن حمدون التي فرغ منها سنة ١٢٤٩هـ على شرح يشرح للحكمة الأفعال لأن مالك.
 - شرح حسن فريد الخليلي المتوفى سنة ١٢٦٢هـ لمنظومة استاذ حسن العطار في النحو.
 - شرح محمد الحضري الدماطي المتوفى سنة ١٢٨٧هـ المسمى «اجلاء الطرف» على منظومته النحوية المسماة «منظومة الإخبار بالطرف».
 - شرح تاج الدين الهلالي الذي مات سنة ١٢٨٨هـ المسمى «الجمانية» لمنظومته الصرفية المسماة «الخرانة» وشرحه المسمى «نار القرى» لمنظومته النحوية المسماة «جوف الفراء».
 - شرح الأبرومة لأحمد بن زيني دخلان ألفه سنة ١٢٩١هـ، وله أيضا حاشية على السرفندية في علم البيان، حاشية على الاظهار في التجويد، شرح على العقائد، رسالة في علم الوضع وفي علم الخير والمقابلة، رسالة في المبادئ، رسالة في وعيد تارك الصلاة، رسالة صغوية في علم البيان، رسالة في المقولات، رسالة في مباحث البسطة، رسالة في صيغ الصلوات على النبي ﷺ، رسالة تتعلق بنجاة زيد، رسالة متعلقة بقوله تعالى: «ما أصابك من حسرة» فمن الله، حاشية على الزيد في الفقه لم تكتمل، وغير ذلك.
 - شرح غلبش الأزهري المتوفى سنة ١٢٩٩هـ المسمى «حل المعقود من نظم المقصود» لأرجوزة أحمد الطهطاوي المتوفى سنة ١٣٠٢هـ في الصرف المسماة «نظم المقصود» وهو من المقصود في الصرف المنسوب لابي حنيفة.
 - «تسهيل نيل الأمان في شرح عوامل الجرحاني» أو «تسريح العوامل في شرح العوامل» لأحمد بن محمد زين مصطفى القطاوي، وهو شرح لمن «العوامل النحوية» لعبد الظاهر الجرحاني، وقد فرغ منه سنة ١٣٠٠هـ.
 - حواشي لأحمد بن محمد زين مصطفى القطاوي على شرحه السابق.
 - تقريرات تشرح بعض مسائل التسهيل والخلاصة الألفية لأن مالك، وهي المختار بن

بون المغربي الشنيطي المتوفى بعد سنة ١٢٠٠هـ على هامش كتابه في النحو المسمى «الجامع بين التسهيل والخلاصة المتبع من الحشو والخصاصة».

- تقريرات للمختار بن بون نفسه كالشرح على كتابه المسمى «المجاء في رسم الحروف في الكتابة».

- شرح محمود محفوظ الدمشقي من علماء القرن الثالث عشر لمخطوخته في النحو المسماة «البلبل المليح».

- حاشية «تشويق الخلال» لعماد معصوم بن سالم السمرقاني السفاطوني وهي على شرح الأبرومة لأحمد بن زيني دحلان، وقد فرغ من هذه الحاشية سنة ١٢٠٣هـ.

- «الحريدة البهية في إعراب أفعال الأبرومة» لعبد الله بن عثمان المكي «المعجم»، فرغ منها سنة ١٢٠٧هـ وبهاشيتها فوائد وشبهات للمصنف نفسه.

- «فتح القفيف شرح حديثه التصريف» لعبد الرحمن بن أحمد الكسلان، فرغ منه سنة ١٢٥٤هـ، وقد شرح فيه أرجوزته المسماة «حديثه التصريف في علم التصريف».

- شرح «السلسل المدخل في علم الصرف» لعماد بن محمد الياس الجاوي القندل من علماء القرن الرابع عشر.

- شرح «مرشد الولدان إلى معاني هداية الصبيان» في علم التجويد لسعيد بن سعد بن تيهان الحضرمي من علماء القرن الرابع عشر الهجري، وهو شرح لمخطوخته المسماة «هداية الصبيان في التجويد».

- شرح «لأن بني» وشرح آخر للجواوي، وشرح ثالث لم يعلم مؤلفه، وجميعها على لأمية الأفعال لأن مالك.

- حاشية أحمد الرفاعي على شرح يرق طه اللامية.

- حاشية الفيومي على نفس هذا الشرح للامية ابن مالك.

- تقريرات اسمها «القصر المبني على حواشي المعنى» لعبد الهادي نجا الأبياري، وهي مخطوطة على حاشية الأمير علي مغني ابن هشام الأنصاري.

حاشية على فتح المعين في الفقه لأبي بكر محمد شطا المكي.

وغير ذلك كثير جدا في العهدين في علوم شتى.

منهج للتأليف والتعليم معا :

لم يكن النظام التأليفي القائم على المتن والشروح والخواشي والتقارير والمختصرات منهج تصنيف فحسب، بل كان منهج تعليم أيضا، فقد رأينا المعلمين يبدأون في العادة بعد أن يحفظ الطلاب المتن في شرح ألفاظها وحل ما كان معقدا منها، وإيضاح المراد بها عن طريق الشروح والخواشي وما بينهما، وهو أسلوب تعليمي يحتاج من المعلم والدارس معا جهدا قويا وملئكة مناسبة وقدرات خاصة وقابليات متميزة.

لهذا ساد هذا النظام الحياة العلمية درسا وتصنيفا، وتعددت المتن والشروح والخواشي والتقارير والمختصرات وتنوعت وتواترت فكان لنا من كل ذلك ثروة علمية عظيمة القيمة خللت مع الزمان، لأنها حفلت بالمعارف المفيدة والآراء السديدة والنظرات المبتكرة، بالإضافة إلى أنها حفظت لنا نصوصا من أصول ومصادر عدت عليها العوادي ولم يصلنا منها غير أسمائها، ومن المتن والشروح الخالدة لقيمتها الرفيعة ومزاياها العالية كافية ابن الحاجب وشافيه وشروحهما، وألفية ابن مالك وشروحها، ومعنى ابن هشام وشروحه، فهي مصنوعات غيرة المادة العلمية، عالية المستوى، ماثلة إلى اليوم محل دراسة المهتمين بعلم النحو وتقديرهم لمعناها أو يذهب بمحاسنها أو يقلل من قيمتها ومنزلتها ما رسمت به بعض المتن والشروح من قصور العبارة عن الدلالة الواضحة، ومن أنها كانت نقلًا وتقليدًا قليل الفائدة ونحو ذلك من المثالب والعيوب.

المتن والمختصرات والشروح والخواشي والتقارير في الميزان:

لم تحظ المتن بالذات - ويقاس عليها المختصرات - بالقبول لدى فريق من العلماء حتى في زمان رواج المتن في عصور الماليك، فقد رأينا ابن خلدون مثلا المتن سنة ٨٠٨هـ. يتعرض لها بالانتقاد، وينعى على أهلها أسلوبهم، ويقول عنه «وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل» (١)، ويقول عن أصحاب هذه المتن «قصروا إلى تسهيل الخلف على المتعلمين، فأركبهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكينها» (٢).

[illegible]

نظام من التصنيف على لزعم من كل ما قرره ما هو، فيه بدو شت حضوره عليه
 نحل في كتبه معلومات متنوعة ونوعها ودرجتها عرستها مسيره، لأصنافه أن ما فيه
 من غرائف والفرائد والأجناد والأفاناب، ومورثات وما قد استمضت منوعة جميعا في
 صيغ شائفة يأسس ما به ويقدم ما يلحقه صلات دلت برهان من دلائل دعوى
 بالحصيل وببشر أنه وكذا غيره وأصرفه عما سواه، وبإلاجه مع من سأل على ما هو عليه وحده
 حدوده ويخرج بهم من صلات كل زمان، لا يفتل من هذا، ولا حصر من فحمة بصريات
 أثرية حديثة ومقولاتها في غرض شائفة وبوجود تصنيف في زمان هذا الذي حقق
 بالمصارع الحديثة وبسائر وسائل بشر المعاصرة لها، يمكن متاحا في ذلك فيما مضى من
 الأزمان.

على أنه لا مانع من لأقرب بأن لعمد في هذا مقصد هو أن نرى فيه بعد تالاه من
 مؤلفات حديثه، وأن نحصيل من هذه النسبة شائفة أكثر بقاء ونفعه فائدة من
 لتحصين من عيوب من انكسب لعمده معاصرة في صيغ وأصناف عباد في
 مخنونة والأصوب، وأن ندرس هذا النوع من تصنيف لأنه أن يتحلل بأصغر وأكبر وأن
 يكون مالكا متكفا لا أنس أن مثله مقصود في عيب من الصلات بين بصرفون في أنواع
 أخرى من الدوس في كتب المعاصرين.

نقول، ولشروع في صفت في عصور الخرافة، وكذلك خواشي وتقريب
 والمصير في صفت في عصور الخرافة، هي في حق وحقيقة دلائل بقاء دلت
 على الخبيرة لعمده بؤذرة في عهد الخرافة في عهد الخرافة بقاء دلت على الخرافة
 وبدرج، فموسى والمصير في صفت في عصور الخرافة، هي في حق وحقيقة دلائل بقاء دلت
 على الخبيرة لعمده بؤذرة في عهد الخرافة في عهد الخرافة بقاء دلت على الخرافة
 كل هذه الأحداث تحدث على صورة من الخرافة، وعلى الصفة بين
 مذهبهم، مع شعبي لتحتار من، ودرك أجود رجحان ومرحوبه فيها، وغلب
 بدارس معاصرة من تقوى ومعارفة، أي رأى ومعارفة حجة حجة، وقبيل في دعه
 أفكار مسكوة وأهتت بصادق حديثه، وجمعت مع طوب رغبة في على طوط مسير من
 التفكير لا يفتح سبي لأقرب، لا بعد أن يقوم عيب بدليل وبسبب حجة

أن العموم الذي عيب به هذه المؤلفات فعدي أنه ليس له بقاء، من عكسه
 الذي بقاء، فليس من كقول أن يحصل عيب يسر وبسهولة من ذلك الذي حصنه بكد
 ومشفقة وعناء، وأبى مسوي هذا من ذلك، وشأن بين شبكة وأغلفة ومدة التحصيل وبذته
 هنا وهناك.

[illegible][illegible]

[illegible][illegible]

أى عامر المنصور وفيها من العربية مائة ألف وجه وأثنان وسبعون ألف وجه وغاية وستون وجهاً، وما كان من ملك النجاة الحسن بن صالح البغدادى المتوفى بدمشق سنة ٥٦٨هـ حين أسنشكل عشر مسائل نحوية ومحاها «المسائل العشر المتعنت إلى الحشر» (١٠).

أما إتهام الدارسين في هذا النظام التأليفى بأنهم لا يتقنون سوى التعامل مع الألفاظ وتحكيكها مما يعجزون معه عن تلويق أى نص أدنى جميل وعن تطبيق قواعد النحو عليه لقلة خبرتهم في التطبيق، فإنه من الواضح ماق هذا الإتهام من المغالاة والتطرف، وهو ان صح وقوعه فإنما يقع من طائفة قليلة من الدارسين الذين ضعف استعدادهم والذين قصرُوا همهم في نفس الوقت على دراسة الألفاظ وحدها ولم يتجاوزوها إلى معانيها، ولا يجوز تعميم الحكم من أجل هؤلاء كما هو الواجب في القضايا العلمية، أما الذين يجعلون الألفاظ منطلقاً إلى المعاني، أو يوحّدون النظرة اليهما، وهم جل الدارسين، فلن يعجزهم بالتأكيد أن يتلوقوا مضمون أى نص أدنى جميل ويفهموه ويطبقوا قواعدهم النحوية عليه.

وعلى العموم فإن أعتقد أن هذا الأسلوب من التصنيف يرقى ففضيلة البحث والتمحيص، وينمى حيلة الصبر والاعتدال على النفس، ويعود على دقة الملاحظة، وأن هذه السلسلة من المؤلفات تتميز خلافاً لكل ما قبل بطونها الخاص الذى نكثرت فيه الصور الجدلية والاعتراضات والردود عليها ثم الاعتراضات على هذه الردود ولغو هذا، وذلك تأسيًا من مصنفها بما كان موجوداً منها في مناقشات قدامى النحويين وفي مجالسهم وحلقات تعليمهم ومصنفاتهم، وإن تردوا في الأمر فأذكروا من مزج هذا كله بالفلسفة والمنطق والجدل.

على أن هناك بعض الظواهر الجديدة بالتسجيل لأنها زلت على سيادة هذا النظام التأليفى في عصرى المالكي والشافعي، ومن هذه الظواهر ظهور نوع خاص من المتن النحوية يبحث في موضوع واحد أو في مسألة واحدة بإيجاز، ثم ظهور شروح خاصة لأكثر هذه المتن، ومن أمثلة هذا وذلك: كتاب «الشفا في أحكام كذا» لأبى حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥هـ، وأربعة متن أحدها في إعراب «فضلا وألفاظ واصطلاحا وخلافاً» وهلم جرا، والثاني في استعمال المبادئ في تسع آيات من القرآن، والثالث في مسألة اعتراض الشرط على الشرط، والرابع في أحكام لو وحتم، وهى جميعاً لابن هشام الأنصاري المتوفى سنة ٧٦١هـ، ومن «أحكام كل وماتدل عليه» لثنى الدين السبكي المتوفى سنة ٨٥٥هـ، ومن «الحايز الوعد بمسائل» أما بعده للجوهري المتوفى بعد سنة

١١٥١هـ، ومن أحكام لاسماء لأحمد السجاعي المتوفى سنة ١١٩٧هـ، و الرسالة الكبرى على السلسلة للصبان المتوفى سنة ١٢٦هـ، ومن «الخوهر القرد في الكلام على أما بعده للدملجحي المتوفى سنة ١٢٣٤هـ، ومن أحكام لواء الرشيدى من علماء القرن الثالث عشر الهجرى، ومن «مسألة الكحل» لنجم الدين سعيد، وهو إيفاض «ما رأيت رجلاً أحسن في عينه الكحل منه في عين زيد»، وشرح «فوح الشفا بمسألة كذا» وهو شرح لأن هشام الأنصارى على متن أنى حيان الأندلسي «الشفا في أحكام كذا» وتكملة له، وشرح «إحراز السعد بالجاز الوعد بمسائل أما بعده وهو شرح للجوهري على متن «إنجاز الوعد بمسائل أما بعده».

ومن هذه الظواهر أيضاً تصنيف بعض الكتب على شكل أسئلة في النحو إجاباتها، وكانت في ذلك متن وشروح مجتمعة، ومن هذا كتاب «قطر الخي في حوار أسئلة الذهب» لأبي حيان الأندلسي، وكتاب «الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية» للراعي الأندلسي المتوفى سنة ٨٥٣هـ، وكتاب «رفع التلبيس فيما سئل به أن خمسي» وهي أسئلة نحوية سئل فيها أن خمسي وأجاب عنها وجمع الأسئلة والأجوبة الشيخ محمد الأمير الشوفر سنة ١٢٣٢هـ، وكتاب «الأسئلة النحوية المفيدة والأجوبة العربية السديدة» لأحمد الطهطاوي المتوفى سنة ١٣٢هـ، وكتاب «الشفة السنية في شرح الثمرات الحبية في الأسئلة النحوية» لعبد الوصف الأزهري.

ومن هذه الظواهر كذلك ظهور مصنفات تقتصر على إعراب عبارة المتن وحده، أو على شرح الشواهد مع إعرابها وبيان مناط الشاهد فيها، ومن هذه المصنفات: إعراب خالد الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥هـ لمن الأجرومية، وتقرين الطلاب في صناعة الإعراب له أيضاً وهو إعراب لائقية أن مائل، وشرح السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ لشواهد المغني، وكتب له أيضاً على شرح شواهد المغني، وكتاب «شواهد القطر» للخطيب المتوفى سنة ٩٧٧هـ وهو شرح لشواهد القطر مع إعرابها، وإعراب الكفراوى المتوفى سنة ١٢٠٢هـ لمن الأجرومية، وكتاب «شفاء الصدر بتوضيح شواهد القطر» للعدي وهو شرح لشواهد قطر الندى مع إعرابها، وشرح البحاني لشواهد شذور الذهب وإعرابها، وشرح للقيومي لشواهد الشذور أيضاً مع إعرابها، وشرح الصاوي لشواهد المغني، وشرح الجرجاني لشواهد ابن عقيل، وكتاب «فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل» لقطعة العدي.

ومن هذه الظواهر ما لوحظ كثيراً من أن فريقاً كثيراً من أصحاب المتن كانوا يقومون

بأنفسهم بتصنيف شروح لمؤلفهم، بالإضافة إلى ما يقوم به غيرهم من شرحها، ولا شك أن صاحب الدار أدرى بما فيها، وهم لذلك أقدر من غيرهم على إدراك مرامي المؤلف التي صنعها، وفهم ما قصص منها، وذكر ما حذف منها وتفصيل ما اختصر فيها، ويمكن التحليل لهذه الظاهرة بأن هشام الأنصارى في منتهى قطر الندى وشدور الذهب وفي شرحه فيما كذلك يمكن ملاحظة التمازج الدالة على هذه الظاهرة فيما سقناه من قبل في هذا البحث من أسماء العديد من المؤلفين والشروح والحواشي والتفريقات وأسماء أصحابها فلا نعيده هنا.

مصادر البحث ومراجعته

- 1- الاتجاهات الحديثة في النحو، مجموعة محاضرات، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧م.
- 2- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، عيسى البابي الحلبي بمصر، سنة ١٩٦٤م، تحقيق محمد أنى الفضل إبراهيم.
- 3- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي الأول، عبد اللطيف حمزة، ط ٨، القاهرة، سنة ١٩٦٨م.
- 4- الحيوان، الجاحظ، ط ٢، القاهرة، سنة ١٩٦٥م، تحقيق عبد السلام هارون.
- 5- أبو حيان النحوي، د. خديجة الخديجي، مكتبة النهضة، بغداد، سنة ١٩٦٦م.
- 6- شرح المفصل، ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية بمصر، بدون تاريخ.
- 7- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، محمود رزق سليم، مطبعة الآداب، مصر، سنة ١٩٦٥م.
- 8- في أدب مصر الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ط ٢، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٣م.
- 9- في النحو العربي، نقد وتوجيه، د. مهدي القزويني، المكتبة العصرية، بيروت، سنة ١٩٦٤م.
- 10- القواعد النحوية - مبادئ وطريقها، عبد الحميد حسن، ط ٢، مكتبة الأجلو المصرية، سنة ١٩٥٢م.
- 11- الكتاب، سبويه، دار القلم، مصر، سنة ١٩٦٦م، تحقيق عبد السلام هارون.

- ١٢- اللغة والنحو بين القديم والحديث، عباس حسن، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٦٦م.
- ١٣- المقدمة، ابن خلدون، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.
- ١٤- النحو الوالي، عباس حسن، ط ٢، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٧١م.
- ١٥- النحو والنحاة بين الأحرار والجامعة، محمد أحمد عرفة، مطبعة السعادة، مصر، سنة ١٩٣٧م.
- ١٦- نظرات في اللغة والنحو، طه الزاوي، المكتبة الأهلية، بيروت، سنة ١٩٦٢م.

- (١) د. محمد كامل حسن، في ادب مصر القاطنين، ص ٩٣ - ٩٤.
- (٢) الموسوعات كتب ضخمة تضم المعلومات المختلفة الخاصة بموضوع واحد أو أكثر من أدب ولغة في مقام متعددة بعد أن يشار إلى المؤلف فيها ويطرح بعضها بعضها الآخر وتحكم الصلة بينها في قالب تأيلي مطبق مناسب في ربط وتقسيم وترتيب وتناسيب وله تكون الموسوعة كتاباً واحداً صعباً يتألف واحداً أو مجموعة من الكتب المتعددة في موضوعات متنوعة يتألف واحد أبداً وله يتشارك أكثر من مؤلف في جعل موسوعي واحد بعد التعريف بمجموع الحركة الفكرية في مصر . ص ٣٩٩.
- (٣) من أمة ٧٩ من سورة السجدة، وفيها الآية: وما أصابكم من مصيبة فليس بمصيبكم فليجزيكم الله شهداء.
- (٤) جمع غائب، أي متراكب، أي حل الغزوات المتراكبات وتخلص الشاغل المتضعات بعضها من بعض.
- (٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥١ - ٥٢.
- (٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥١ - ٥٢.
- (٧) انظر مثلاً د. مهدي الفريسي، في النحو العربي لغة وتاريخ، ص ٦٩، طه الزاوي، نظرات في اللغة والنحو، ص ٣٧، وديندار، ومحمد أحمد رائق، الاتجاهات الحديثة في تفسير النحو، ص ٦٩، وغيرهم.
- (٨) سيبويه، الكتاب، مقدمة الخطي، ص ٣٠١.
- (٩) ابن جني، شرح القليل، المقدمة، ص ٢٠١.
- (١٠) الخليل، الخليل، ص ١٠١.
- (١١) عبد الحميد حسن، القواعد النحوية - مادياً ونظرياً، ص ٣٧٥.
- (١٢) عباس حسن، اللغة والنحو بين القديم والحديث، ٢١٤ - ٢١٥.
- (١٣) عباس حسن، النحو الوالي، المقدمة، ص ١٠١.
- (١٤) حميد زكي سليم، عصر سلاطين المماليك، ٢٠٩ - ٢١٠، ص ٣٦٠.
- (١٥) محمد أحمد عرفة، النحو والنحاة بين الأحرار والجامعة، ٧٩ - ٨٠، ص ١٤.
- (١٦) انظر مقدمة الخطي، أبو حيان النحوي، ١٤٥ - ١٤٦.
- (١٧) الخليل، الخليل، ص ١٠١.
- (١٨) محمد أحمد عرفة، النحو والنحاة بين الأحرار والجامعة، ٤١.
- (١٩) انظر السيمي، بحث قواعد، ١٠٥ - ١٠٦، ص ٥٧٧.